أدب الرسائل عند الأمير عبد القادر الجزائري: مقاربة فنية للرسائل السياسية

The Literary Features of Algerian Prince ‘Abdel Qaher: Aesthetical Approach of the Political Letter

Sastera Persuratan oleh Putera *‘Abdul Qādir Al-Jazāirī*: Satu Pendekatan Kesenian terhadap Penulisan Persuratan Politik

مفلاح بن عبد الله*

ملخص البحث:

تشكل رسائل الأمير عبد القادر الجزائري السياسية في مجموعها ثروة ثمينة جديرة بالدراسة في مختلف جوانبها، وعلى الرغم من أنها حظيت بالدراسات التاريخية، إلا أنها أُغْفِلَتْ من الدراسة الفنية، ومن ثم جاءت دراستي هذه التي وسمتها بـ "أدب الرسائل عند الأمير عبد القادر الجزائري: مقاربة فنية للرسائل السياسية" لتبرز بعض خصائص الكتابة الديوانية في الجزائر خلال المدة الزمنية الممتدة من ١٨٣٢م إلى ١٨٤٧م، وقد استعنت في ذلك بالمنهج الوصفي الذي يرصد الظواهر، ثم يحللها تحليلا يوصل إلى نتائج موضوعية. ولاستفاء موضوع الدراسة حقه، كان لابد من الحديث عن مصطلح الترسل في كتب التراث، ثم مقاربة الرسائل فنيا؛ فتحدثت عن صيغ افتتاح الرسائل الرسمية الأميرية، وصيغ الانتقال إلى غرض الرسالة، وخواتيم الرسائل الأميرية، كما كشفت عن الروافد المعرفية التي

* أستاذ بالمركز الجامعي بغليزان– الجزائر.

اعتمد عليها الأمير في بناء رسائله السياسية، مع بيان موضوعات تلك رسائل، وخصصت القسم الثاني من هذه الدراسة، للحديث عن أسلوب الأمير في كتابة الرسائل، وبناء الجمل، وتوظيفه للبديع، ممثلا لذلك كله من الرسائل.

الكلمات المفتاحية: الترسل– الجمل– البديع– الروافد–الأسلوب.

Abstract:
The political letters written by the Algerian Prince ‘Abdel Qaher are regarded as resourceful materials deserved to be studied from various standpoints, nonetheless, the aesthetical aspect of the letters is still being ignored. The paper aims at uncovering the features of political letter writing in Algeria from the period that began from ١٨٣٢ until ١٨٤٧. The literary features are initially described and subsequently analyzed. The study also highlights the definition of letter writing in the traditional sources before subjecting it to the aesthetical approach. The various styles of these correspondences with regard to the introduction by the Prince, the theme and ending of the letters are also studied.

Keywords: Correspondence - Sentences - Allusion - Style

.

Abstrak:
Karya-karya persuratan oleh Putera *‘Abdul Qādir Al-Jazāirī* telah memperkayakan khazanah sastera persuratan dan selayaknya diberi perhatian untuk dikaji dari segenap aspek. Walaupun mendapat tempat dalam kajian sejarah, dari segi kesenian, karya-karya persuratan beliau dialpakan. Dengan itu, kajian ini tampil mengisi kekosongan tersebut dan berhasrat menonjolkan beberapa ciri penulisan *dīwān* di Algeria antara ١٨٣٢M hingga ١٨٤٧M secara diskriptif dan akan meneliti fenomena tersebut dan menganalisanya sehingga menghasilkan dapatan kajian yang objektif. Bagi memenuhi keperluan tersebut, istilah seni persuratan dalam warisan bertulis perlu dibincangkan. Setelah itu, pendekatan kesenian akan dibuat, yang mana ia akan menyentuh tentang format-format pembukaan dalam surat rasmi diraja, peralihan antara isi kandungan dan penutup. Kajian ini juga telah mengesan rangkaian pengetahuan yang diterima pakai putera itu dalam penulisan persuratan politiknya, menerangkan tema-tema persuratan beliau, menyatakan gaya bahasa penulisan beliau, struktur ayat serta aplikasi retorik. Semuanya itu dibuat dengan mengetengahkan contoh-contoh karya beliau.

Kata kunci: Persuratan – Ayat – Retorik – Rangakaian – Gaya Bahasa

مقدمة:

المفهوم الاصطلاحي للترسل: اجتهد الكثير من المشتغلين في حقل النقد والبلاغة القدماء في تحديد الحد الاصطلاحي للترسل، فابن وهب الكاتب يرى أن (الترسل من ترسلت، ترسلاً وأنا مترسل،... ولا يقال ذلك إلا فيمن تكرّر فعله في الرسائل. ويقال لمن فعل ذلك مرة واحدة: أرسل، يرسل، إرسالاً، وهو مرسل، والاسم الرسالة. أو راسل، يراسل، مراسلة، وهو مراسل، وذلك إذا كان هو ومن يراسله قد اشتركا في المراسلة).[١] وفي السياق ذاته، يؤكد المرزوقي على أن المقصود من الترسل هو كتابة الرسائل.[٢] وهذا التعريف –حسب علمي– متفق عليه عند معظم البلاغيين، أما ما بينهم من خلاف فهو خلاف في التفاصيل، والشروط الواجب مراعاتها في إنشاء الرسائل من قبل المترسل، ومن ذلك ما وضعه المرزوقي قائلاً: (وللمترسل أمور لابدّ من مراعاتها: منها تبيين مقادير من يكتب عنه وإليه حتى لا يرفع وضيعاً ولا يضع رفيعاً، وأن يعلم أوقات الإسهاب والتطويل، والإيجاز والتخفيف، فقد يتفق ما يحتاج فيه إلى الإكثار حتى يستغرق في الرسالة الواحدة أقدار القصائد الطويلة ويتفق أيضاً ما تغني فيه الإشارة ويجري مجرى الوحي في الدلالة).[٣]

المقاربة الفنية:

الأمير عبد القادر الجزائري[٤] فارس، وشاعر، وقائد مقاوم من طراز نفيس، وقف نداً للإمبراطورية الفرنسية لمدة تزيد عن سبع عشرة سنة، كان خلالها عظيم المقام، رفيع القدر، عالي الهمة، آمن بقضية شعبه، وبتحرره إيماناً راسخاً لا تذهب به العواصف، ولا تلوى به حوادث الدهر، وله الفضل في زرع ثقافة المقاومة، وترسيخها في ذهن الشعب الجزائري. وبرع أيضاً في ميدان الفكر والأدب؛ حيث جمع بين النظم والنثر، فكان فقيهاً متزناً جمع بين النقل والعقل، وصوفياً معتدلاً وازن بين مطالب الروح وحاجات الجسد.

وقد أفاد من الميدان الثاني–الفكر والأدب– ليخدم الأول، وبحكم المنصب الذي تصدره والأمانة التي حملها، كانت له علاقات دولية واسعة، ومراسلات متعددة مع كبار

ساسة العالم، وقادته العسكريين، ومع شخصيات مختلفة المشارب والاتجاهات. ولاشك في أن تلك المراسلات تؤلف في مجموعها تراثاً فكرياً، وأدبياً مهماً، وتؤرخ لمرحلة في التاريخ الجزائري، لا تزال الذاكرة الجزائرية تحتفظ بها باعتزاز وفخر.

وفي هذه الورقة البحثية سنتناول جانبا من جوانب تلك الآثار الأدبية، الممثلة في الرسائل السياسية للأمير تناولاً فنياً –شكلاً ومضموناً– من خلال الآتي:

- المضامين والموضوعات في رسائل الأمير.
- بنية الرسائل الأميرية.
- الروافد المعرفية التي استعان الأمير بها صياغة واستشهاداً.

موضوعات الرسائل الرسمية:

رسائل الأمير إلى المملكة الإسبانية:

بلغ عددها ما يقارب اثنتي عشرة رسالة، ويمكن تحديد محتواها كالآتي:

أولاً: تحدثت الرسائل عن رغبة الأمير في وساطة إسبانيا بينه وبين فرنسا، حتى يتمكن من العودة إلى الجزائر، ورغبته في السماح لمبعوثيه بالدخول إلى مليلية، ليسلموا لحاكمها الإسباني رسائله، ويتفاوضوا معه. وفي مقابل ذلك عرض الأمير خدماته على إسبانيا؛ إذا حققت عودته إلى بلاده. كتب الأمير ما نصه: (... وأردنا من دولة اصبنيول[٥] أن تدخل في كلام الخير بيننا وبين الفرنصيص[٦] ... وإن قدّر الله برجوعنا إلى الوطن نكون معكم كما تحبوا...).[٧]

ثانياً: تحدثت الرسائل عن سعي الأمير للحصول على الأسلحة وقطع الغيار للمدافع، وخيوط الفتيل، والقضبان الحديدية، والسجلات، والفسفور. جاء في رسالة الأمير ما نصه: (... أرجوكم أن تعطوا إلى قادة ابن هاشمي قطعة غيار Affut أخرى، وبعض فتايل أخرى، وبعض الكبريت (فوسفور) وثلاثة أو أربعة من قضبان الحديد...).[٨]

ثالثاً: تحدثت الرسائل عن سعي الأمير للحصول على القمح، والشعير، والخرطال من حاكم مليلية بالتبادل بالتمر، والأصواف، والسمن، والعسل، والأغنام، وغيرها من البضائع

التي يحصل عليها من الصحراء. كتب الأمير ما نصه: (... اجتهدوا إن استطعتم القدرة على القيام بالتبادل بالقمح، فذلك يسرنا كثيراً، وقافلة التمور والصوف، انتظر قدومها من الصحراء).[٩]

رابعاً: تحدثت عن سيطرة الأمير على القبائل المغربية المحيطة بمليلية، وإخضاعها له، وأهمية ذلك بالنسبة إلى الإسبان. جاء في رسالة الأمير ما نصه: (... نخبركم أيضاً بأننا أخضعنا المغاربة المجاورين لكم والذين يدعون بالقلايعة، فلا تخافوا أي شيء منا...).[١٠]

رسائل الأمير إلى المملكة البريطانية:

ويمكن تحديد محتواها كالآتي:

أولاً: تحدثت الرسالة المتوفرة لدينا عن طلب الأمير الحلف مع المملكة البريطانية، بعد أن نكث الفرنسيون العهود معه، وقد كتب الأمير ما نصه: (فلا يخفى عليك أننا كنا تعاقدنا مع جنس الفرنصيص عقداً وثيقاً، وتعاهدنا في الصلح والمهادنة على شروط منا ومنهم، ووفينا لهم بجميع ما اشترطوه... ثم ابتدؤا التخليط والتبليس والخدعة، فخادعونا مراراً بنقض الميثاق...).[١١]

ثانياً: تحدثت عن رغبة الأمير في التبادل التجاري مع المملكة؛ حيث دعا إلى إنشاء سوق مشتركة بينهما. جاء في رسالته ما نصه: (... فإن أردتم المصلحة العامة وتكون لكم المودة زيادة على الفرنصيص، نتفق معكم على التسوق في أي مرسى أردتم من مراسي ملتزمون لكم بجانب البر بما تريدون...).[١٢]

ثالثاً: تحدثت عن طلب الأمير من المملكة البريطانية المساعدة بالسلاح، والمال، حيث كتب ما نصه: (... وبلغنا أيضاً أنهم قالوا –أي كبراء الإنجليز– إذا احتاج الأمير عبد القادر إلى دراهم أو سلاح أو غير ذلك نسلف له ونبيع له كل ما يحتاجه، فلما تأملنا كلامكم هذا، وجدناه كلام عقلاء...).[١٣]

رابعاً: تحدثت عن طلب الأمير من المملكة البريطانية توصيل رسائله إلى اسطنبول؛ حيث تعذر عليه القيام بذلك نتيجة الحصار الفرنسي. جاء في رسالة الأمير ما نصه: (نحب

أن تعملوا فينا مزية كبيرة وذلك أن لنا مكاتب إلى اصطنبول، وليس لنا طريق إليها من غيركم، فنحب أن تبعثوها على أيدكم إلى السلطان عبد المجيد...).[١٤]

رسائل الأمير إلى اسطنبول:

ويمكن تحديد محتواها كالآتي:

أولاً: تحدثت رسالة الأمير إلى السلطان عبد المجيد عن الوضع في الجزائر منذ دخول الفرنسيين إلى وقت كتابة الرسالة،[١٥] وأرّخت الرسالة أيضاً للصراع الدائر بين الأمير والفرنسيين. ومما جاء في نص هذه الرسالة قوله: (... فاجتمعوا (كذا) أعيان الوطن وطلبوا ذلك من الوالد... فأشار إلي...وشمرت على ساعد الجد... وضيقنا على الكافر المجالات، وصاروا لا يأمنون في جميع الحالات. ولما رأى الكافر منا تلك القوة والحدة، احتال في حل عزائمنا بطلب الصلح مدة...).[١٦]

ثانياً: تحدثت عن فساد الجيش الانكشاري وخيانته للخلافة العثمانية. جاء في رسالة الأمير ما نصه: (... أن الينيشارية[١٧] الذين كانوا بالجزائر، لما خرجوا عن طاعة أمير المؤمنين والدك المرحوم عاقبهم الله بسوء فعلتهم وسلّط عليهم من لا يرحمهم العدو الكافر الغشوم...).[١٨]

ثالثاً: تحدثت عن شكوى الأمير من قلة المال والسلاح، وتخلي البلدان الإسلامية عن مناصرته، ومساعدته بالسلاح، أو المال. كتب الأمير ما نصه: (ونحن أسلمنا إخواننا المسلمون، وتركونا أسارى في يد العدو، فهم لنا ظالمون، وتبرأ منا من كان لنا قريب من الملوك، ومنعونا شراء ما نتقوى به على الكافر، خوفاً منه ومنعونا حتى السلوك.).[١٩]

رابعاً: تحدثت عن طلب المساعدة من الخلافة العثمانية بالمال والمقاتلين. ومما جاء في نص هذه الرسالة قوله: (... فأدركونا قبل الفوات و... بمددكم قبل الوفاة، وصلوا فينا بفضلكم رحم الإسلام...).[٢٠]

بنية الرسائل السياسية عند الأمير:

تتشكل البنية النموذجية للرسالة الرسمية عند الأمير من الأجزاء أو العناصر الآتية:

١. الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.
٢. ذكر المرسل والمرسل إليه والدعاء له.
٣. البعدية.
٤. إيراد مضمون الرسالة.
٥. ذكر مكان كتابة الرسالة.
٦. ذكر تاريخ الرسالة.
٧. وضع العلامة السلطانية.

والملاحظ في هذا الهيكل الذي تتشكل منه الرسائل السياسية الأميرية، نجد أن الأمير متبع لا مبتدع، فقد استقام هذا النموذج واشتد عوده، وكملت نواقصه أيام دولة بني العباس؛ حيث تأسس علم صناعة الرسائل على يد نخبة من أبرع كتاب ذاك العصر كابن العميد، ولكن بعض هذه العناصر لم تكن تتسم في الطبعة الأميرية بالثبات والاستقرار.

ونحن في هذه الورقة البحثية لا نسعى التوقف عند كل هذه العناصر، بل سنقتصر على تحليل صيغ افتتاح الرسائل الرسمية، وصيغ الانتقال إلى غرض الرسالة، ثم خواتمها.

صيغ افتتاح الرسائل الرسمية الأميرية:

صيغة الافتتاح الدالة على المرسل: الغالب فيها أن يتم التعريف بالأمير عبر ذكر مركزه الديني والسياسي، ثم يعلن عن اسمه، مقرونا باسم والده، ويلي بعد ذلك الدعاء له. وشاهِدُنا في هذا، رسالته إلى رئيس الوزراء البريطاني؛ حيث افتتحها بالصيغة ذاتها. وجاء نص الافتتاح كما يأتي: (من أمير المؤمنين سلطان النواحي الجزائرية والوهرانية والتلمسانية إلى طاعة إفريقيا، مولانا السيد الحاج عبد القادر بن مولانا السيد الحاج محي الدين نصره الله- آمين-).[٢١]

فذكره لقب أمير المؤمنين هو بمثابة إعلان عن مركزه الديني، وذكره لقب سلطان النواحي الجزائرية، هو بمثابة إعلان عن مركزه السياسي، لكن هذه المفردات الموظفة تتغير من

رسالة إلى أخرى، فنجد مرة يلقب نفسه بأمير المؤمنين، وتارة بأمير المسلمين، وطوراً بملك المسلمين.

وتكاد صيغة الافتتاح ذاتها تتكرّر في معظم الرسائل الرسمية الأميرية، ومن ذلك ما نجده في رسالته إلى ملكة إسبانيا؛ حيث وظف الصيغة الآتية: (من أمير المؤمنين وحامي شرع الله سيدنا الحاج عبد القادر ولد محيي الدين أيده الله –آمين–).[٢٢]

ونجد الصيغة نفسها تتكرّر أيضاً في رسالته إلى الحكومة البريطانية؛ حيث جاءت بالصيغة الآتية: (من أمير المؤمنين بالنواحي الوهرانية والجزائرية وما والاها إلى طاعة تونس مولانا السيد عبد القادر بن مولانا السيد الحاج محي الدين نصره الله –آمين–).[٢٣]

أما في الرسائل الموجهة إلى الخليفة العثماني، أو رئيس وزرائه، فنجد في الصيغة لمسة تواضع، وطاعة، واحترام لولي الأمر؛ حيث يضيف إلى الصيغة بعض الألفاظ الدالة على الولاء، والطاعة، والخضوع للخلافة، وللمسئولين فيها، كما يحذف من الصيغة الألفاظ الدالة على المركز الدينين أو السياسي الذي يشغله الأمير، وفي هذا إقرار غير مباشر منه بدخوله في طاعة الدولة العثمانية. ومثل ذلك نجده في رسالته إلى السلطان عبد المجيد؛ حيث جاءت صيغة افتتاحيتها على النحو الآتي: (من عبد الله مقبل ترب أعتابكم المستعطف لرحماكم، الراجي فضلكم وقضاكم، خادم حضرتكم، وخادم المجاهدين، عبد القادر بن محيي الدين منحه الله رضاه، ثم رضى رسوله، ثم رضاكم في الدنيا ويوم الدين –آمين–).[٢٤]

صيغة الافتتاح الدالة على المرسل إليه: أما بالنسبة إلى صيغة الافتتاح الدالة على المرسل إليه؛ فنجدها تختلف –في رسائل الأمير– باختلاف شخصية المرسل إليه؛ من حيث المكانة السياسية، ووفق العقيدة التي يدين بها. فخطاب الملوك والخلفاء يختلف في مفرداته وسماته عن خطاب صغار المسؤولين، وخطاب المسلمين أيضاً يختلف في خصوصياته وفي ألفاظه عن خطاب غير المسلمين.

ففي رسالته إلى رئيس الوزراء البريطاني، نجده يستخدم الصيغة: (... إلى عظيم الجيوش الانجليزية، ريهم الأكبر، ورئيس ملوكهم الأفخر..). [٢٥] وفي رسالة أخرى يصفه قائلاً (..إلى

الوزير الأعظم في دولة الانجليز، المدبر لأمرهم، المتصرف في جميع ما يصلح بهم وبأحوالهم، جلت أو قلت، المنسطر[٢٦] الكبير بالدولة المذكورة...).[٢٧]

والصيغة نفسها استعملها حين خاطب ملكة إسبانيا؛ ففي رسالته إليها خاطبها الأمير قائلا:(... إلى من فاقت ملوك الأرض عظام جنسها، وأرقت أعلى منابرها وكرسيها، مركز دائرة اصبانيا وسلطانته، وقطب دائر رأيه ومكانته، وأناءت على كل وصف فيه الحسن والنعت...).[٢٨] وفي رسائل أخرى يخاطبها بعبارات موجزة مثل: (... إلى جلالة ملكة إسبانيا، وسيدة الأراضي الاسبانية...)،[٢٩] وقوله: (... إلى عظيمة جنود اصبنيول، الحاكمة فيهم، المدبرة أمورهم الزينة...[٣٠]

أما في مكاتباته لصغار المسؤولين مثل حكام المقاطعات؛ فإنه ينحو منحاً آخر؛ حيث نجده يستغني عن المدح والوصف، ويكتفي بذكر رتبة المرسل إليه، أو وظيفته، وهو ما يشبه عندنا اليوم الرسالة الإدارية. ومثل ذلك نجده في رسالته إلى حاكم مليلية دو بينيطو؛ إذ خاطبه بالصيغ: (السيد المقدم)،[٣١] (عزيزي المقدم).[٣٢]

واللافت للنظر في شأن هذه الرسائل الموجهة لغير المسلمين، أن الأمير يتعمد حذف أحد الأجزاء المهمة في الرسالة وهو الدعاء، وتعويضه بالوصف الحسن اللائق بمنزلة المرسل إليه.

وبالنسبة إلى الرسائل الموجهة للشخصيات المسلمة؛ فقد كانت صيغ الافتتاح الدالة على المرسل إليه نمطية؛ حيث يُوصف المرسل إليه بحامي الدين والدنيا على طريقة شعراء المديح، لكنه في المقابل حافظ فيها على جزئية الدعاء على خلاف الرسائل الموجهة إلى ملوك النصارى؛ ذلك أن الدعاء للخليفة أو للخلافة في التقاليد السياسية الإسلامية يدّل على الولاء أو البيعة، أو يدّل على الرضا بتلك الخلافة، أو بذاك الخليفة. ومن صيغ الدعاء التي افتتح بها الأمير رسائله الموجهة إلى دولة الخلافة، قوله في رسالته إلى السلطان عبد المجيد: (إلى سلطان سلاطين الإسلام وحامي بيضة أمة محمد عليه الصلاة والسلام، طود الملوك الشامخ، وركنهم الثابت الراسخ، وشمسهم التي تستمد منها كواكبهم، والبحر المحيط التي

(هكذا) لا تخوض لجحه مراكبهم... أعانك الله على ما أولاك، وكان لك وتولاك، ونصرك على مرّ الدهور والأزمان...).[٣٣]

صيغة التحية: اتخذت صيغ التحية في الرسائل الأميرية، نمطين اثنين متباينين: أحدهما نمطي تقليدي؛ اختص بالرسائل الموجهة إلى الشخصيات المسلمة، يمكن حصره في النموذج الآتي: (سلام على سيدي ورحمة الله وبركاته).[٣٤]

أما الرسائل الموجهة إلى ملوك النصارى، وعُمالهم فكانت تتسم بسمة خاصة، يمكن أن نصطلح عليها بـ" التحية المشروطة"، وهذا النوع من التحية استمده الأمير من الهدي النبوي، وتكرّر في كل هذا الصنف من الرسائل. وشاهِدُنا في ذلك قوله في رسالته إلى القنصل البريطاني بطنجة: (السلام على من اتبع رضى الحق ورحمة الله).[٣٥]

وفي رسالته إلى رئيس الوزراء البريطاني، نجد التعبير الآتي: (السلام على من اتبع الهدى)،[٣٦] أما في رسالته إلى ملكة إسبانيا، نجده يصرّح بما أسميناه بالتحية المشروطة وذلك حين قال: (عليكِ سلام الله بشرطه).[٣٧]

صيغ الانتقال إلى غرض الرسالة:

وظف الأمير في انتقاله من افتتاح الرسالة إلى غرضها صيغتين اثنتين: إحداهما مباشرة، والأخرى غير مباشرة، ففي الصيغة المباشرة تخلّص الأمير من المطالع والتمهيدات، وانتقل إلى غرض الرسالة المقصود باستخدامه ألفاظا توحي بذلك الانتقال، ومثال ذلك قوله في رسالته إلى ملكة إسبانيا: (وبعد فإن مكتوبك في صحيفة واحدة بخطّين اصبنيولي وفرنصيص قد فضضناهما باليد ونظرناهما بالعين...)،[٣٨] ومثله أيضاً قوله في رسالته إلى رئيس الوزراء البريطاني: (وبعد: فإننا كنا تعاقدنا مع كبير الفرنصيص على الصلح والمهادنة...).[٣٩]

أما في الصيغة غير المباشرة فوظّف الأمير صيغاً تدل دلالة واضحة على التمهيد للموضوع، قبل الانتقال إلى صميم غرض الرسالة. ومثال ذلك قوله في رسالته إلى ملكة إسبانيا:(من المسلم به لدى جميع الناس أن الإسبان يؤلفون أمة قوية...)[٤٠] ومنه أيضاً قوله

في رسالة أخرى إلى ملكة إسبانيا: (... فإن جنس اصبنيون هو الجنس العظيم الذي كانت تظهر منه الأفعال العظام في الزمان القديم، وهم أهل المملكة العظيمة والرياسة الفخيمة...).[٤١]

خواتيم الرسائل الأميرية:

أما ختام الرسائل الأميرية فيكون غالباً بلفظ (والله الموفق)[٤٢] أو (الصلاة على الرسول)،[٤٣] أو (طلب الجواب)،[٤٤] وفي بعض الأحايين كانت الرسائل تختم بالدعاء، والاستغفار؛ مثل رسالته إلى ملكة إسبانيا؛حيث ختمها بقوله: (... وهو حسبنا ونعم الوكيل واستغفروه (كذا) سبحانه من كل ذنب أذنبناه قولاً وفعلاً، واستجلبناه بعضاً أو كلاً...).[٤٥]

الروافد المعرفية في الرسائل الأميرية:

اشترط النقاد على كاتب الرسائل أن يكون ملماً بالتراث، كأن يكون حافظاً للقرآن، والحديث، والشعر، والأمثال، والحكم، كما يجب أن يكون واسع الإطلاع بالنحو، واللغة، والتاريخ؛ ذلك أن هذا الموروث حاضر في وجدان المرسل إليه، حين يتوسّل المرسل به يكون قد توسّل بأقوى الوسائل تأثيراً فيه؛ لأن كل معطى من معطيات التراث يرتبط دائماً بهالة من القيم الفكرية والروحية؛ بحيث يكفي استدعاء هذا المعطى، أو ذاك، لإثارة كل الإيماءات والدلالات التي ارتبطت به في وجدان المرسل إليه.[٤٦]

وقد سار الأمير على هذا النهج، والتزم بهذه القواعد، ووظف شواهد معرفية في رسائله الرسمية بحسب ما يقتضيه المقام، والسياق، ولعل أهم تلك الشواهد الموظفة من لدن الأمير؛ الشواهد القرآنية والشواهد التاريخية.

فبالنسبة إلى الشواهد القرآنية، فهي تعد رافداً أساسياً يعتمد عليه الكاتب في إنشاء رسائله، وقد جرت العادة أن لا تخلو أية رسالة من الاقتباس من القرآن؛ لأن الشاهد القرآني يقوى المعنى والحجة، وهي سمة مشتركة مع الشواهد الأخرى، ولكنه يزيد عليها قوة الإيحاء والتأثير، لما له من مكانة إيمانية في قلوب المتلقين.[٤٧]

والنص القرآني بوصفه شاهدا يورد عادة في صورتين:

الصورة الأولى: أن يرد مستقلاً لتقوية الفكرة، أو توضيحها، وهذا هو الغالب في هذا المجال.

الصورة الثانية: أن يرد منساباً في السياق كأنه جزء أصيل أساسي منه، مضيفاً جديداً في الفكرة أو الصورة.

وقد اهتم الأمير بتوظيف الصورة الثانية التي تناسب الرسائل الرسمية، وتنسجم معها، خاصة أن النصيب الأوفر من تلك الرسائل كانت موجهة إلى ملوك، وزعماء غير مسلمين، ومن ثم كان عليه أن يتعامل مع الشاهد القرآني وفق المقام، والسياق. وسنكتفي في هذا السياق بالنماذج الآتية:

قوله: (... أرسلت عليهم ريح عاتية فترى القوم فيها صرعى...) يقابله قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾.[٤٨]

وقوله: (... كأنهم خشب مسندة...) يقابله قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.[٤٩]

وقوله: (... وقد استمسكوا بالعروة الوثقى...) مستمد من قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.[٥٠]

وقوله: (...نسلّم أمرنا إلى الله...) يقابله قوله تعالى: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾.[٥١]

وينهج الأمير النهج نفسه في التعامل مع شواهد الحديث الشريف، فهو يرد منساباً في السياق كأنه جزء أصيل أساسي منه، ومثال ذلك قوله في رسالته إلى السلطان عبد المجيد:[٥٢] (... ولم يبق إلا ما يسر ويؤنس، تسير المرأة وحدها شهر، لا تخاف إلا الله ولا تخشى أحداً

نكر...)، وهذا مأخوذ من قوله ρ: "والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه".[٥٣]

وقوله أيضاً في الرسالة نفسها: (... ونحن نقول: المسلمون جسد واحد...)، وهو مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى".[٥٤]

أما بالنسبة إلى الشواهد التاريخية، فقد اعتنى بها كتّاب الرسائل اعتناءهم بتثقيف أنفسهم، وحرصهم على معرفة أخبار الدول، وملوكها، وسياساتهم ووقائعهم، وما اتفق لهم من تجارب؛ لأن الكاتب قد يضطر للسؤال عن أحوال السلف أو يراد منه في الكتاب ذكر واقعة بعينها، أو يحتج عليه بصورة قديمة فلا يعرف حقيقتها من مجازها. فالتاريخ كما يقول صلاح الصفدي له (أثر كبير في الثقافة العامّة، فهو سجلّ الأيام من سياسة وعمران، وفن وأدب).[٥٥]

وقد استشهد الأمير بكثير من الواقع التاريخي، فرسائله تظهره قارئاً له، وصانعاً له أيضاً. وهو يتغيا من توظيف التاريخ وإيراد وقائع منه التأثير على المرسل إليه واستمالته للوقوف إلى جانبه وتأييد قضيته، وذلك من خلال إيراد الواقع التاريخية التي تظهره مناصراً للقضايا العادلة.

ورسائل الأمير تمنحنا شواهد كثيرة تُظهر قدرته الفائقة على حسن استثمار التاريخ لنصرة قضيته. ومن ذلك قوله في رسالته إلى ملكة إسبانيا:[٥٦]

(من المسلم به لدى جميع الناس، أن الإسبان يؤلفون أمة قوية وقديرة، مشهورة بأعمالها الكبيرة منذ أزمنة بعيدة...).

(لقد جرت العادة بين الملوك منذ العصور القديمة، أن يصلحوا الخلافات التي تنشب بين إخوانهم، ويمنعوا الحرب بينهم كذلك...).

ففي المثالين السابقين يستنجد الأمير بالتاريخ من أجل استمالة ملكة إسبانيا للوقوف إلى جانبه ومساعدته في ثورته؛ حيث نجده يُذَّكِرها بصنائع أجدادها في الإصلاح بين الممالك والدول المتحاربة.

أما في رسالته إلى السلطان عبد المجيد فنجده يعدد الأخطاء التاريخية للجيش الإنكشاري، ويحمله أسباب الهزائم التي منيت بها الشعوب الإسلامية. فيقول: (إن الينشارية الذين كانوا بالجزائر، لما خرجوا عن طاعة أمير المؤمنين والدك المرحوم عاقبهم الله بسوء فعلهم وسلّط عليهم من لا يرحمهم العدو الكافر الغاشم...) ويضيف: (... وما من مدينة من مدن الإسلام دخلها الكفار إلا كان الينشارية هم دعاتهم إليهم ومرسليها...).[٥٧]

كما نراه في الرسالة ذاتها يسرد واقع بيعته أميراً، وهو سرد يهدف من خلاله إلى تأكيد شرعية بيعته وإمارته ومقاومته. يقول: (... فاجتمعوا أعيان الوطن وطلبوا ذلك من الوالد، فنفر منهم نفير البعير الشارد، مع ما كان فيه من الرحمة على المسلمين والإشفاق، لأنه كان أورع أهل الوقت على الإطلاق، فطلبوا منه تعيين بعض أولاده لذلك أشار إلي...).[٥٨]

ولعله من فضول القول أن ننبه إلى أن الأمير لم يورد هذه الشواهد مجردة، ولكن ساقها مرتبطة بوقائع ومناسبات ومواقف، فجاءت في السياق متوافقة، دون تعمّل أو تعسف وتكلف؛ وذلك لتأكيد المضمون، وتقويته، والإقناع به، وقد تضيف إلى المضمون أفكاراً جديدة لم تردْ في السياق، وتبقى دلالتها الذاتية واضحة، وهي سعة إطلاع الأمير وحضور بديهته وحماسته لموضوعاته.

المقاربة اللغوية:

الأسلوب والأداء التعبيري:

إنّ من أدق وأحدث تعريفات الأسلوب، أنه طريقة يستخدمها الكاتب ليبين رأيه، أو يعبر عن موقفه بألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام، وأفعل في نفس قارئه أو سامعه، فتعرف شخصية صاحب هذا الأسلوب، وتتميز باختياره المفردات،

وانتقاء التراكيب لأداء أفكاره حق أدائها. والأسلوب إما سهل واضح، وإما مزخرف معقد وعر. أما الأسلوب المعتدل فهو الذي يجمع بينهما. وتتغير سمات الأسلوب تبعاً لكل عصر، تماماً كما تتغير من شخص إلى آخر. ومن هنا قالوا: الأسلوب هو طريقة الكاتب في التعبير عن موقف ما، والإبانة عن شخصيته المتميزة عن سواها.[٥٩]

الأسلوب مظهر فني ينشأ عن اختيارات الكاتب المختلفة، سواء في الألفاظ باستبدال كلمة بأخرى أكثر دلالة، أم وقعها الموسيقي أكثر عذوبة وأوفر جمالاً، ويختار تركيباً نحوياً بدلاً من تركيب آخر، معتمداً على التقديم، والتأخير، والتوكيد، والحذف، والتكرير، واللجوء إلى الجمل القصيرة بدلاً من الطويلة، أو اختيار التشبيهات والمحسنات البيانية المختلفة.[٦٠]

واستعان الأمير في بناء رسائله السياسية بأسلوب هو أقرب للأسلوب العلمي منه للأسلوب الشعري؛ ذلك أن الأسلوب العلمي يعد أهدأ الأساليب، وأكثرها احتياجاً للمنطق السليم، والفكر المستقيم، وأبعدها عن الخيال الشعري، لأنه يخاطب العقل، ويناجي الفكر، ويشرح الحقائق العلمية التي لا تخلو من غموض وخفاء، وأظهر ميزات هذا الأسلوب الوضوح. ولابد من أن يكون فيه أثر القوة والجمال، وقوته في سطوع بيانه ورصانة حججه؛ وجماله في سهولة عبارته، وسلامة الذوق في اختياره كافة، وحسن تقريره المعنى في الأفهام من أقرب وجوه الكلام.[٦١] لذا، اتسم أسلوبه بالسهولة، والوضوح، وهي سمة غالبة في كل رسائله، فقد وظف ألفاظاً واضحة صريحة في معناها، وألّف هذه الألفاظ في سهولة وجلاء؛ فلا غريب ولا مهجور من الكلمات، ولا مبتذل أو مستهجن، ومن المنظور البلاغي، تنحى الأمير عن محسنات البديع إلا ما جاء عفواً من غير أن يمس أصلاً من أصوله، أو ميزة من ميزاته.

ولعل من نافلة القول أن نشير إلى أن خاصيتي السهولة والوضوح من ألزم الصفات الأسلوبية لكُتَّاب الرسائل الرسمية؛ لأنها –أي الرسائل– إنما تُنشأ لاستجلاب منفعة، أو لدفع مضرة، ومن ثم كان أيضاً بيت القصيد من الرسالة أمراً في غاية الأهمية والخطورة.

بناء الجملة:

الجملة: ذهب قسم من النحاة إلى أن الكلام والجملة هما مصطلحان لشيء واحد، فالكلام هو الجملة، والجملة هي الكلام، وذلك ما ذكره ابن جني في الخصائص قائلاً: (أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه وهو الذي يسميه النحويون الجمل..).[٦٢]

بينما باين القسم الآخر من النحاة بين الجملة والكلام، ووضعوا شرط الإفادة أساساً لهذا التباين. فقد جاء في التعريفات في تعريف الجملة الآتي: (عبارة عن مركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى سواء أفاد كقولك "زيد قائم" أو لم يفد كقولك "إن يكرمني"، فإنه جملة لا تفيد إلا بعد مجيء جوابه فتكون أعم من الكلام مطلقاً).[٦٣]

والشرط ذاته، وضعه ابن هشام الأنصاري في المغني؛ إذ يرى أن الجملة أعم من الكلام، وأن الكلام يشرط فيه الإفادة، على عكس الجملة التي لا تحتاج لشرط الإفادة في بنائها، من مثل جملة الشرط، وجملة جواب الشرط، وجملة الصلة.[٦٤]

بناء الجملة في رسائل الأمير السياسية: وأقصد ببناء الجملة في رسائل الأمير السياسية دراسة الجملة من حيث الطول والتوسط والقصر. وسوف تكتفي هذه الدراسة بمعالجة "الجملة" في رسائل الأمير وهي لا تخرج من ناحية الكم عن الأقسام الثلاثة الآتية:جمل طويلة، وأخرى متوسطة الطول، وثالثة قصيرة.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه ليس هناك حد ثابت لطول الجمل النثرية، خاصة إذا تداخلت في الجملة الكبرى الرئيسة جمل صغرى ثانوية، أما حد قِصرها فثابت ومعلوم؛ فأقصر ما تكون العبارة النثرية أن تتركب من كلمتين اثنتين، ولا يمكن أن تكون أقل من ذلك.

وفي رسائل الأمير نجد الجمل الطويلة هي أكثر الجمل استعمالاً، وذلك لسببين: أحدهما أنها أقدر من النوعين الآخرين، وأكثر سماحة واتساعاً لاستيعاب المعاني والأفكار، بصرف النظر عن التنميق اللفظي، والتجميل البلاغي. وثانيهما أن الهدف هو التبليغ والإقناع قبل أن يكون التجميل، والتأثير العاطفي، وهو ما تتسم به الجمل القصيرة ذات

الجرس والموسيقى الأخاذ، وهذا على عكس من يرى أن الجملة كلما طالت تبددت وحدتها وتشوهت ملامحها وضعف تأثيرها، وأشبهت الحديث اليومي العادي.

ومن نماذج الجمل الطويلة في رسائل الأمير الآتي: (... وإذن ليس من الفائدة إطلاقا أن نحكي ونقص لجلالتكم تفاصيل هذه المقاومة...).[٦٥] وقوله: (وبعد فإن مكتوبيك في صحيفة واحدة بخطين اصبنيولي وفرنصوي قد فضضناهما باليد...).[٦٦] وقوله: (... إذا أردتم المزية الظاهرة التي تفوزون بها على كل الجنوس،[٦٧] وتمتازون بها عن غيركم، تلاقون في أي مرسى تريدونها من مراسي الجزائر...).[٦٨]

فالجملة في المثال الثاني نراها تمتاز بالطول؛ إذ يبتعد فيها خبر إن عن اسمها بما يقارب ستة مفردات. كذا بالنسبة إلى الجملة الأخيرة، فهي أيضاً تتسم بالطول إذ يبتعد شرطها (إذا أردتم المزية) عن جواب الشرط (تلاقون) بقرابة نصف السطر.

وتأتي الجمل المتساوية، والجمل القصيرة في المرتبة الثانية بعد الجمل الطويلة، والرسالة الواحدة قد تجمع هذه الأنواع الثلاثة بالترتيب الكمي المذكور. كما نرى في رسالة الأمير إلى قنصل بريطانيا بطنجة؛ إذ اتسمت جملها بالتوسط والقصر. ونمثل لذلك بالآتي: (... فخادعونا مراراً بنقض الميثاق... ولم تختلف معهم كلمتنا في شيء... إلى أن أدى بهم عماهم وطغيانهم لجمع جيوشهم ... خرجنا للغاية بما حضر من جنودنا... ولاقينا فنصرنا الله عليه...).[٦٩]

ومن الجمل القصيرة الخالصة في رسائل الأمير، قوله: (... إن كبراء الانجليز أشفقوا من حالنا ... ونالوا الكلام في شأننا ... وقالوا إن الفرنصيص ظلم العرب... ولا بد أن تتكلموا في أمرهم...).[٧٠]

البديع وألوانه:

البديع عند البلاغيين علم يعرف به الوجوه، والمزايا التي تزيد الكلام حسناً وطلاوة، وتكسوه بهاءً ورونقاً بعد مطابقتها لمقتضى الحال ووضوح دلالته على المراد. وهو عند الخطيب

القزويني: (هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال، ووضوح الدلالة. وهو ضربان: ضرب يرجع إلى المعنى، وضرب يرجع إلى اللفظ).[٧١]

وإذا كان الشعر يمثل قمة البيان العربي في الإيقاع؛ لاستجابته للنوازع الفطرية المتناغمة مع حركة الكون وجمال الطبيعة بما فيها من التوازن والتناسب، فإن العرب أضفوا على نثرهم من عناصر الإيقاع ما قربه إلى الشعر، ولشدة ولعهم بالإيقاع، وإدراكهم لقيمته الجمالية والتعبيرية، لم يكتفوا باستعماله في صياغة الشعر، بل زينوا به كثيراً من أصناف كلامهم المنثور، وأكثروا فيه من التوازن والتناسب والازدواج والسجع، وغير ذلك من المحسنات التي يمكن اعتبارها من عناصر الإيقاع.[٧٢]

ويشير عبد القاهر الجرجاني في سياق إشادته بفنون البديع إلى أنه لا يمكننا أن نجد (تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً ولا تجد عنه حولاً، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه، وتأهب لطلبه....).[٧٣]

ويعتبر البديع من الألوان البيانية المهمة، وأهميته تأتي من قدرته على تحري نفس السامع أو القارئ، فضلاً عن غايته الصوتية، وهذا إرضاء لحاسته الذوقية السمعية، ولهذا فسنهتم في هذه الورقة البحثية بمثل هذه الألوان البديعية التي لها حضور في المدونة المعنية بالدراسة، مما اعتمد عليه الأمير في بناء رسائله على نحو ما وجدناه واضحاً وجلياً في الجناس والسجع.

السجع: وهو توافق الفواصل في الحرف الأخير في النثر، يقول القزويني: (السجع تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد، وهذا هو قول السكاكي "الإسجاع في النثر كالقوافي في الشعر").[٧٤].

والسجع بأنواعه –خصوصاً المطرف والمتوازي– هو حلية بلاغية جمالية مطلوبة، وظاهرة فنية خالصة مرغوبة، ولا يمكن أن تُحَب أو تُحصر في زمان أو مكان، وله ميزة أسلوبية تقوم على عنصر صوتي لدى المرسل والمرسل إليه، وسر جماله يكمن في الجرس الموسيقي المؤثر الذي يزيد من قوة أداء الفكرة.

السجع المتوازي: وهو ما كان الاتفاق فيه في الكلمتين الأخيرتين فقط[٧٥] نحو قوله تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾،[٧٦] وهذا النوع من السجع نجده بصورة جليّة، وبكثرة في رسائل الأمير. منها رسالته إلى الصدر الأعظم حيث يقول الأمير: (...فهم للعدو الكافر أسراً، يفعل فيهم ما يشاء، ويحملهم أغلالاً وإصراً...وطلبنا منه المدد بالعدة والعدد، وأخبرناه بأحوالنا وسردنا عليه بعض أهوالنا...فان العساكر وافرة والجزائر عامرة، ... فأدركونا قبل الفوات... بمددكم قبل الوفات...).[٧٧]

ويظهر أيضاً في رسالته إلى السلطان عبد المجيد، إذ يقول: (... فبعث إلى الوطن ابن عمه مع جيش كثير يمدهم بالمدد الغزير، فما جعل الله فيهم نفعاً، ولا جاهدوا ولا غنوا عن المسلمين دفعاً، وانقلبوا من حيث جاءوا، ورجعوا من حيث فاءوا...)[٧٨]

والملاحظ هنا أن الألفاظ أسراً وإصراً، المدد والعدد، وافرة وعامرة، الفوات والوفات، نفعاً ودفعاً، جاءوا وفاءوا جمعيها اتفقت في الوزن والقافية معاً، ومنحت النص جرساً موسيقياً مؤثراً.

السجع المطرف: وهو ما اختلفا فاصلتاه في الوزن، واتفقتا في الحرف الأخير[٧٩] ، نحو قوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾،[٨٠] فاختلفت الفاصلتان (وَقَاراً وأَطْوَاراً) في الوزن الصرفي (فَعَالاً وأفعَالاً) واتفقتا في الحرف الأخير (الراء)، وورد الجزء الأول أطول من الثاني، وهو نوع يجد استحساناً لدى المتلقي.

وقد استفاد الأمير من هذا النوع من السجع، ولكنه وظّفه بشكل عفوي؛ حيث نجده متناثر في ثنايا رسائله، ولو قمنا بعملية مسح لتلك الرسائل، لتوفر لدينا رؤية عميقة تبرز ولع الأمير بهذا النوع من السجع. ومن أمثلة ذلك قوله في رسالته إلى السلطان عبد المجيد: (... فلما رأى والدي عموم المصيبة بالدين، واشتغال المسلمين فيما يلهيهم عن قتال الملحدين، بذل جهده في إصلاح ذات البين، ورفع الحيرة وشن الغارات على الكفار في كل حين، بمن وافقه وأطاعه من المجاهدين، فلما رأى الكافر ذاك، زاد في قوته وشدته وتكالب على

المسلمين القريبين...) وقوله أيضاً في الرسالة نفسها: (... وحال الكافر والبحر بين المسلمين وبين سلطانهم، مع شدة حاجتهم إلى من يقوم بهم، ويدافع عن حريمهم وأولادهم...).[٨١]

الجناس: ويسمى التجنيس والتجانس والمجانسة، ومعناه تجانس أي تشابه بين كلمتين في النطق ويكون معناهما مختلفاً؛ أي تماثل الكلمتين أو تقاربهما أو تشابهما في اللفظ واختلافهما في المعنى. وهو نوعان: الجناس التام وشرطه أن تتفق حروف اللفظين في عددها وترتيبها ونوعها وضبطها. أما الجناس غير التام أو الجناس الناقص فهو الذي يفقد بعض ما يشترط في الجناس التام.[٨٢]

ويكمن سر جمال الجناس في أنه يشيع في الكلام نغمة موسيقية نابعة من التشابه في اللفظ، ويؤدي حركة ذهنية من الاختلاف في المعنى.

ووُرُود الجناس في رسائل الأمير لم يكن مقصوداً لذاته؛ بل جاء نتيجة ترف لفظي يتصف به الأمير، ودليلنا على ذلك هو أن هذه النماذج من الجناس التي حوتها رسائله لم تأتِ منمقة ومرصعة، إنما جاءت متناثرة دالة على عفوية توظيفها. ونكتفي هنا بأمثلة ثلاث تؤيد ما ذهبنا إليه:

يقول الأمير في رسالته إلى السلطان عبد المجيد:[٨٣] (... وعرفنا أفعالنا وأقوالنا...)، (...وضيقنا على الكافر المجالات، وصاروا لا يأمنون في جميع الحالات ...)، (...فلما رأى والدي عموم المصيبة في الدين... وبذل جهده في لإصلاح ذات البين...)، فالمفردات:المجالات والحالات، أفعالنا وأقوالنا، الدين والبين، كلها دالة على الجناس.

الخاتمة:

وتأسيساً على ما تم عرضه وبيانه، نستجيز القول إن هذه المدونة كشفت لنا عن الوجه الآخر للأمير عبد القادر الجزائري الفارس والقائد والمناضل، فقد أنبأتنا هذه المدونة عن سعة اطلاع الأمير على فنون وقواعد الكتابة العربية التي بدأت بعبد الحميد، وانتهت بابن العميد. كما أن التزامه بتقنيات الكاتبة الفنية، وجمعه بين جزالة اللفظ وبساطة ووضوح المعنى، وقدرته

على التصرف، وبراعته في الانتقاء والاختيار، ومراعاته لمقتضى الحال، مكنه من الوصول إلى قلوب مراسليه وعقولهم مستميلاً مقنعاً، وجعل من رسائله وثيقة ثقافية وسياسية وتاريخية هامة شاهدة على شخصه وعصره معا.

هوامش البحث:

[١] ابن وهب، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم، **البرهان في وجوه البيان**، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، (القاهرة: مكتبة الشباب، ١٩٦٩م)، ص١٩٢.

[٢] انظر: المرزوقي، أبوعلي أحمد بن محمد بن الحسن، **شرح ديوان الحماسة**، ط١، تحقيق: غريد الشيخ، (لاط، دت)، ج١، ص١٨.

[٣] السابق نفسه، ج١، ص١٨.

[٤] الأمير عبد القادر الجزائري: ولد عبد القادر بالقطنة قرب مدينة معسكر عام ١٨٠٨ م، تلقى تربيته بالزاوية التي كان يتكفل بها أبوه محي الدين ثم تابع دراسته بأرزيو ووهران على يد علماء أجلاء حيث أخذ منهم أصول العلوم الدينية، الأدب العربي، الفلسفة، التاريخ، الرياضيات، علم الفلك والطب. وكان على علم ودراية تامين بعلماء أمثال أفلاطون، أرسطو، الغزالي، ابن رشد كما تبينه كتاباته. بويع أميراً بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٨٣٢. بعد أن قويت شوكته، أجبر الفرنسيين على إمضاء معاهدة ديميشال في ٢٤ فبراير ١٨٣٤ م التي تقر بسلطته على الغرب الجزائري، ثم معاهدة التافنة الشهيرة بتاريخ ٣٠ مايو ١٨٣٧م. استمر صراعه مع الاستعمار الفرنسي لمدة تقرب ١٧ سنة ليتسلم في ديسمبر ١٨٤٧م بعد أن تخلت عنه المساندة المغربية؛ حيث ينقل الأمير إلى فرنسا، ثم يقرر نابليون الثالث إطلاق سراحه فينفى إلى تركيا ثم بروسيا ليقرر بعدها الإقامة بصفة نهائية في دمشق حيث يستقبل استقبالاً استثنائياً. توفي بدمشق بتاريخ ٢٦ مايو ١٨٨٣م.

[٥] يقصد الإسبان.

[٦] يقصد الفرنسيين.

[٧] رسالة الأمير إلى ملكة إسبانيا بتاريخ ١٦ جمادى الأولى من عام ١٢٦٣ هجرية الموافق لـ ٢ ماي ١٨٤٧ ميلادية. بوعزير، يحي، ودوايبالزا، ميكيل، **مراسلات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليلية**، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٦)، ص٥١-٥٢.

[٨] رسالة الأمير إلى حاكم مليلية دو بينطيو بتاريخ جويلية ١٨٤٧ ميلادية. بوعزير ودوايبالزا، **مراسلات الأمير عبد القادر**، ص٧٤.

[٩] رسالة الأمير إلى حاكم مليلية دو بينطيو ، بدون تاريخ. السابق نفسه، ص٩١.

[١٠] رسالة الأمير إلى حاكم مليلية دو بينطيو بتاريخ ٩ أو ١٠جويلية ١٨٤٧ ميلادية. السابق نفسه، ص٧٠.

[١١] رسالة الأمير إلى قنصل بريطانيا بطنجة بتاريخ جمادى الأولى ١٢٥١ هجرية الموافق لـ ٢٢ سبتمبر ١٨٣٥ ميلادية. التميمي، عبد الجليل، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي**، (الجزائر وتونس وليبيا: ١٨١٦/١٨٧١)، ط ٢، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٥)، ص١٣١.

[١٢] رسالة الأمير إلى رئيس الوزراء البريطاني بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى ١٢٥١ هجرية الموافق لـ ٢٢ سبتمبر ١٨٣٥ ميلادية. التميمي، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي**، ص١٣٢.

[١٣] رسالة الأمير إلى رئيس الوزراء البريطاني بتاريخ ٢٥ شوال ١٢٥٧ هجرية الموافق لـ ١٠ ديسمبر ١٨٤١ ميلادية. السابق نفسه، ص١٣٤.

[١٤] السابق نفسه، ص١٣٤.

[١٥] شوال ١٢٥٧هجرية، الموافق لديسمبر ١٨٤١.

[١٦] رسالة الأمير إلى السلطان عبد المجيد بتاريخ شوال ١٢٥٧ هجرية الموافق لديسمبر ١٨٤١ ميلادية. السابق نفسه، ص١٣٦-١٣٧.

[١٧] يقصد الجيش الانكشاري.

[١٨] رسالة الأمير إلى السلطان عبد المجيد، السابق نفسه، ص١٣٦.

[١٩] رسالة الأمير إلى السلطان عبد المجيد، السابق نفسه، ص١٣٨.

[٢٠] رسالة الأمير إلى الصدر الأعظم باسطنبول بتاريخ شوال ١٢٥٧ هجرية الموافق لديسمبر ١٨٤١ ميلادية. السابق نفسه، ص١٣٩.

[٢١] رسالة الأمير إلى رئيس الوزراء البريطاني بتاريخ ١٨٤١، السابق نفسه، ص١٣٤.

[٢٢] رسالة الأمير إلى ملكة إسبانيا، بوعزير ودوايبالزا، **مراسلات الأمير عبد القادر**، ص٦٨.

[٢٣] رسالة الأمير إلى رئيس الوزراء البريطاني بتاريخ ١٨٣٥، التميمي، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي**، ص١٣٢.

[٢٤] رسالة الأمير إلى السلطان عبد المجيد، السابق نفسه، ص١٣٥.

[٢٥] رسالة الأمير إلى رئيس الوزراء البريطاني بتاريخ ١٨٣٥، السابق نفسه، ص١٣٢.

[٢٦] أي الوزير باللغة الفرنسية Ministre.

[٢٧] رسالة الأمير إلى رئيس الوزراء البريطاني بتاريخ ١٨٤١، السابق نفسه، ص١٣٤.

[٢٨] رسالة الأمير إلى ملكة إسبانيا بتاريخ ٢ رجب من عام ١٢٦٣ هجرية الموافق لـ ١٦ جوان ١٨٤٧ ميلادية. بوعزير ودوايبالزا، **مراسلات الأمير عبد القادر**، ص٦٢.

[٢٩] رسالة الأمير إلى ملكة إسبانيا بتاريخ ١٢ جمادي الأولى من عام ١٢٦٣ هجرية الموافق لـ ٢٨ أفريل ١٨٤٧ ميلادية. السابق نفسه، ص٤٩.

[٣٠] رسالة الأمير إلى ملكة إسبانيا بتاريخ ٢ ماي ١٨٤٧، السابق نفسه، ص٥٠.

[٣١] السابق نفسه، ص٥٠.

[٣٢] رسالة الأمير إلى حاكم مليلية دو بينطيو بتاريخ جويلية ١٨٤٧ ميلادية، السابق نفسه، ص٧٤.

[٣٣] رسالة الأمير إلى السلطان عبد المجيد، السابق نفسه، ص١٣٥.

[٣٤] التميمي، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي**، ص١٣٥.

[٣٥] رسالة الأمير إلى قنصل بريطانيا بطنجة، السابق نفسه، ص١٣١.

[٣٦] رسالة الأمير إلى رئيس الوزراء البريطاني بتاريخ ١٨٤١، السابق نفسه، ص١٣٤.

[٣٧] رسالة الأمير إلى ملكة إسبانيا بتاريخ ١٦ جوان ١٨٤٧، بوعزير ودوايبالزا، **مراسلات الأمير عبد القادر**، ص٦٢.

[٣٨] السابق نفسه، ص٦٢.

[٣٩] رسالة الأمير إلى رئيس الوزراء البريطاني بتاريخ ١٨٣٥، التميمي، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي**، ص١٣٢.

[٤٠] رسالة الأمير إلى ملكة إسبانيا بتاريخ ٢٨ أفريل ١٨٤٧، بوعزير ودوايبالزا، **مراسلات الأمير عبد القادر**، ص٤٩.

[٤١] رسالة الأمير إلى ملكة إسبانيا بتاريخ ٢ ماي ١٨٤٧، السابق نفسه، ص٥٠.

[٤٢] رسالة الأمير إلى رئيس الوزراء البريطاني بتاريخ ١٨٤١، التميمي، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي**، ص١٣٥.

[٤٣] رسالة الأمير إلى السلطان عبد المجيد، السابق نفسه، ص١٣٩.

[٤٤] رسالة الأمير إلى قنصل بريطانيا بطنجة، السابق نفسه، ص١٣٢.

[٤٥] رسالة الأمير إلى ملكة إسبانيا بتاريخ ١٦ جوان ١٨٤٧، بوعزير ودوايبالزا، **مراسلات الأمير عبد القادر**، ص٦٣.

[٤٦] انظر: أحمد، محمد فتوح، **النثر الكتابي في العصر الأموي**، ط٢، (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥)، ص١٦٣-١٦٤.

[٤٧] انظر: توات، الطاهر محمد، **أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن**، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٦م)، ص٤٥.

[٤٨] سورة الحاقة، الآية ٦و٧.

[٤٩] سورة المنافقون، الآية ٤.

[٥٠] سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

[٥١] سورة غافر، الآية ٤٤.

[٥٢] رسالة الأمير إلى السلطان عبد المجيد، التميمي، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي**، ص١٣٥.

[٥٣] نص الحديث: "شكونا إلى رسول الله ρ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون." انظر: البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، ط٢، (الرياض: مكتبة ناشرون، ٢٠٠٦م)، برقم: ٣٦١٢.

[٥٤] البخاري، **صحيح البخاري**، برقم: (٦٠١١)، والنيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري ابن الحجاج، **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، ط١، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ت)، برقم: (٢٥٨٦)، واللفظ له.

[٥٥] الجيلالي، عبد الرحمن، **تاريخ الجزائر العام**، ط ٢، (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥)، ج ١، ص١٧.

[٥٦] رسالة الأمير إلى ملكة إسبانيا بتاريخ ٢٨ أفريل ١٨٤٧، بوعزيز ودوايبالزا، **مراسلات الأمير عبد القادر**، ص٤٩.

[٥٧] رسالة الأمير إلى السلطان عبد المجيد، التميمي، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي**، ص٣٦-٣٧.

[٥٨] رسالة الأمير إلى السلطان عبد المجيد، السابق نفسه، ص٣٦.

[٥٩] انظر: التونجي، محمد، **المعجم المفصل في الأدب**، ط ٢، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩) ج ١، ص٩٣.

[٦٠] انظر: خليل، إبراهيم، والصمادي، امتنان، **فن الكتابة والتعبير**، ط٢، (الأردن: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ٢٠٠٩م)، ص١٩.

[٦١] انظر: الهاشمي، السيد أحمد، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، ط٣، (لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦م)، ص٢٩.

[٦٢] ابن جني، أبو الفتح عثمان، **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار، (مصر: دار الكتب المصرية، د.ت)، ج١، ص١٧.

[٦٣] الجرجاني، السيد الشريف علي بن محمد بن محمد، **التعريفات**، (مصر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٣٨م) ص٦٩؛ عن السامرائي، فاضل صالح، **الجملة العربية تأليفها وأقسامها**، ط٢، (الأردن: دار الفكر، ٢٠٠٧ م)، ص١٢.

[٦٤] انظر: الأنصاري، ابن هشام، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق: محمد محيى الدين عبد المجيد، (لبنان: دار الكتاب العربي)، ج٢، ص٣٧٤. عن السامرائي، **الجملة العربية**، ص١٢.

[٦٥] رسالة الأمير إلى ملكة إسبانيا بتاريخ ٢٨ أفريل ١٨٤٧، بوعزيز ودوايبالزا، **مراسلات الأمير عبد القادر**، ص٤٩.

[٦٦] رسالة الأمير إلى ملكة إسبانيا بتاريخ ١٦ جوان ١٨٤٧، السابق نفسه، ص٦٢.

[٦٧] يقصد الأمم.

[٦٨] رسالة الأمير إلى قنصل بريطانيا بطنجة، التميمي، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي**، ص١٣١.

[٦٩] رسالة الأمير إلى قنصل بريطانيا بطنجة، السابق نفسه، ص١٣١.

[٧٠] رسالة الأمير إلى رئيس الوزراء البريطاني، السابق نفسه، ص١٣٤.

[٧١] الخطيب القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد ابن قاضي القضاة، **الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع**، (لبنان: دار الكتب العلمية، د.ت)، ص٣٨٤.

[٧٢] انظر: الخضري، محمد الأمين، "كسر الإيقاع ودلالاته في الفاصلة القرآنية"، بحث منشور ضمن أعمال **المؤتمر الدولي الثالث للعلوم الإسلامية والعربية وقضايا الإعجاز في القرآن والسنة بين التراث والمعاصرة** بجامعة المنيا، المجلد ٣، ص١١٢٩ وما بعدها.

[٧٣] الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، **أسرار البلاغة**، (السعودية: دار المدني، د.ت)، ص١٠.

[٧٤] القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة**، ص٤٠٢.

[٧٥] الهاشمي، **جواهر البلاغة**، ص٣٣١.

[٧٦] سورة الغاشية، الآية ١٣-١٤.

[٧٧] رسالة الأمير إلى الصدر الأعظم، مرجع سابق.

[٧٨] رسالة الأمير إلى السلطان عبد المجيد، مرجع سابق.

[٧٩] الهاشمي، **جواهر البلاغة**، ص٣٣٠.

[٨٠] سورة نوح، الآية ١٣-١٤.

[٨١] رسالة الأمير إلى السلطان عبد المجيد، التميمي، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي**، ص١٣٦.

[٨٢] المراغي، محمود أحمد حسن، **علم البديع**، ط١، (لبنان: دار العلوم العربية، ١٩٩١م)، ص١٠٩-١١٠.

[٨٣] رسالة الأمير إلى السلطان عبد المجيد، التميمي، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي**، ص١٣٦.

المراجع: References:

Al-Bukhāriyy, Abū ʿabd Allāh Muḥammad bin ʾismāʿīl, *Ṣaḥīḥ al-Bukhāriyy*, ٢nd edition, (Riyadh: Maktabah Nāshirūn, ٢٠٠٦).

Al-Hāshimiyy, al-Sayid Aḥmad, *Jawāhir al-Balāaghah fī al-Maʿānī wa al-Bayān wa al-Badīʿ*, ٣rd edition, (Lebanon: Dār al-Kutub al-ʿilmiyyah, ٢٠٠٦).

Al-Jīlāliyy, ʿabd al-Raḥman, *Tārīkh al-Jazāʾir al-ʿām*, ٢nd edition, (Beirut: Dār Maktabah al-Ḥayāh, ١٩٦٥).

Al-Jurjāniyy, Abū Bakr ʿabd al-Qāhir bin ʿabd al-Raḥman, *ʾasrār al-Balāghah*, (KSA: Dār al-Mdaniyy, no date).

Al-Jurjāniyy, al-Sayid al-Sharīf ʿalī bin Muḥammad bin Muḥammad, *al-Taʿrīfāt*, (Egypt: Sharikah wa Maṭbaʿah Muṣṭafa al-Babiyy al-Ḥalabiyy wa ʾawlāduh, ١٩٣٨).

Al-Khaṭīb al-Qazwīniyy, Jalāl al-Dīn Abū ʿabd Allāh Muḥammad bin Qāḍī al-Quḍāh, *al-ʾiḍāḥ fī ʿulūm al-Balāghah: al-Maʿānī wa al-Bayān wa al-Badīʿ*, (Lebanon: Dār al-Kutub al-ʿilmaiyyah, no date).

Al-Khuḍariyy, Muḥammad al-ʾamīn, "Kasr al-ʾīqāʿ wa Dalālātuh fī al-Fāṣilah al-Qurʾāniyyah", *ʾaʿmāl al-Muʾtamar al-Duwaliyy al-Thālth li al-ʿulūm al-ʾislāmiyyah wa al-ʿarabiyyah wa Qaḍāyā al-ʾiʿjāz fī al-Qurʾān wa al-Sunah bayn al-Turāth wa al-Muʿāṣarah bi Jāmiʿah al-Minyā*, Vol ٣.

Al-Marāghiyy, Maḥamūd Aḥmad Ḥasan, *ʿilm al-Badīʿ*, ١st edition, (Lebanon: Dār al-ʿulum al-ʿarabiyyah, ١٩٩١).

Al-Naysābūriyy, Muslim bin al-Ḥajāj al-Qushariyy bin al-Ḥjaāj, *Ṣaḥīḥ Muslim*, ed. Muḥammad Fuʾād ʿabd al-Bāqī, ١st edition, (Cairo: Dār ʾiḥyāʾ al-Kutub alʿarabiyyah - ʿīsā al-Bābiyy al-Ḥalabiyy wa Shurakāʾuh, no date).

Al-ʾanṣāriyy, Ibn Hishām, *Mughnī al-Labīb ʿan Kutub al-ʿārīb*, ed. Muḥammad Muḥiyy al-Dīn ʿabd al-Majīd, (Lebanon: Dār al-Kitāb al-ʿarabiyy).

Al-Samurrāʾiyy, Fāḍil Ṣāliḥ, *al-Jumlah al-ʿarabiyyah Taʾlīfuhā wa ʾaqsāamuh*ā, ٢nd edition, (Jordan: Dār al-Fikr, ٢٠٠٧).

Al-Tamīmiyy, ʿabd al-Jalīl, *Buḥūth wa Wathāʾiq fī al-Tārīkh al-Maghribiyy*, (Algeria & Libya: ١٨١٦/١٨٧١), ٢nd edition, (Algeria: Dīwān al-Maṭbūʿāt al-Jāmiʿiyyah, ١٩٨٥).

Al-Tūnjiyy, Muḥammad, *al-Muʿjam al-Mufaṣṣal fī al-ʾadab*, ٢nd edition, (Beirut: Dār al-Kutub al-ʿilmiyyah, ١٩٩٩).

Al-Marzūqiyy, Abū ʿalī Aḥmad bin Muḥammad bin al-Ḥasan, *Sharḥ Dīwān al-Ḥamāsah*, ١st edition, ed. Gharīd al-Shaikh, (no publisher, no date).

Būʿazīr, Yaḥyā, wa Mīkīl Duāybālzā, *Murāsalāt al-ʾamīr ʿabd al-Qādir maʿ ʾisbāniyyah wa Ḥukāmihā al-ʿaskariyyīn bi Malīlah*, (Algeria: Dīwān al-Maṭbūʿāt al-Jāmiʿiyyah, ١٩٨٦).

Ḥamad, Muḥammad Futūḥ, *al-Nathr al-Kitābiyy fī al-ʿaṣr al-ʾumawiyy*, ٢nd edition, (Beirut: Dār Maktabah al-Ḥayāh, ١٩٦٥).

Ibn Jiniyy, Abū al-Fatḥ ʿuthmān, *al-Khaṣāʾiṣ*, ed. Muḥammad ʿalī al-Najār, (Egypt: Dār al-Kutub al-Maṣriyyah, no date).

Ibn wahb, Abū al-Ḥusainiyy ʾisḥāq bin ʾibrāhīm, *al-Burhān fī Wujūh al-Bayān*, ed. Ḥafnī Muḥammad Sharaf, (Cairo: Maktabah al-Shabāb, ١٩٦٩).

Khalīl, ʾibrāhīm, wa ʾimtinān al-Ṣamādiyy, *Fan al-Kitābah wa al-Taʿbīr*, ٢nd edition, (Jordan: Dār al-Masīrah li al-Nashr wa al-Tawzīʿ wa al-Ṭibāʿah, ٢٠٠٩).

Tawāt, al-Ṭāhir Muḥammad, *ʾadab al-Rasāʾil fī al-Maghrib al-ʿarabiyy fī al-Qarnayn al-Sābiʿ wa al-Thāmin*, (Algeria: Dīwān al-Maṭbūʿāt al-Jāmiʿiyyah, ١٩٨٦).